

المحاضرة الثالثة:

الرمز الصوفي



مرحباً بك عزيزي الباحث..عزيزتي الباحثة، في هذه المحاضرة من مساق مادّة الأدب الصّوفي والتي تُقدّم ضمن الدروس عن بعد.نتحدث في هذه المحاضرة عن موضوع الرّمز الصّوفي.

الرّمز الصّوفي:

تمهيد:

الرّمز في الأدب الصّوفي شعرا ونثرا، بعيد عن التصريح، لا يكاد يفهمه فاهم، ولا يصل إلى جوهره عالم، يعتمد على الإشارة والتلويح. "وليس الرّمز في الشّعـر الصّوفي راجعا إلى الكنايات البعيدة وحدها، وإطلاق أسماء من قبيل الرموز الحفيّة على مسميات لا يراد التصريح بها كالخمرة مثلا والمعاني الحسية التي يستعملها الصوفيون في الدلالة على المعاني الروحية، يرمزون بها إلى مفاهيم وجدانية على الرغم من الرداء المادي الذي تبدو فيه، ومن ثم استعمل الصوفيون الوصف الحسي والغزل الحسي والخمر الحسية، وأرادوا بها معاني روحية"⁽¹⁾.

وهكذا نجد الرمز الصوفي انتشر في كتابات الصوفية نثرها وشعرها، وقد يكون الصوفية مضطرين إلى استعمال الرمز لأنّ الحاجة ألجأتهم إليه لأنّهم يعبرون عن معان ومشاهد وإحساسات نفسيّة لا عهد للغة بها ولا بالتعبير عنها، ويعلل الإمام القشيري سبب هذه الرمزيّة في كلام الصوفيون بأنّه "تقريب الفهم على المخاطبين، أو تسهيل على أهل تلك الصنعة في الوقوف على معانيهم لأنفسهم، أو الإخفاء والستر على من باينهم في طريقتهم، لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجنب"⁽²⁾.

(1) ينظر: محمد عبد المنعم خفاجي، الأدب في التراث الصوفي، ص 181

(2) ينظر: المرجع نفسه، ص 185 .

ويشير ابن الفارض إلى عدم استطاعة الصوفيين التعبير عن مدركاتهم الروحية مما يلجئهم إلى الرمز، يقول:

وعني بالتلويح يفهم ذائق *** غني عن التصريح للمتعت

بها لم يبح من لم يبح دمه *** وفي الإشارة معنى ما العبارة حدث

فهو يقول : إنّ أولى الذوق يفهمون كلامي بالرمز لا بالتصريح، وهم في غنى بالتلويح عن التصريح، وأنّ الرجل الذي يريد السلامة لنفسه لا ييوح بالحقائق التي يدركها بمشاعره وروحه، حتى يمنحه الله السلامة، فالإشارة تغني عن العبارة.

1- مفهوم الرّمز لغة واصطلاحاً :

أ - الرّمز لغة: (Symbole)

فقد ورد الرّمز بمعنى الإشارة في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ سورة آل عمران، الآية. 41

عرّف الزبيدي في قاموسه تاج العروس (مادة رمز) بقوله " الرّمز بالفتحة ويضم ويحرك :الإشارة إلى شيء ما، بيان بلفظ بأي شيء، أو هو الإيماء بأي شيء أشرت إليه بالشفّتين؛ أي تحركهما بكلام غير مفهوم، باللفظ من غير إبانة بصوت، أو العينين أو الحاجبين، أو الفم، أو اليد، أو اللسان، وهو تصويت خفي به كالهمس" (1).

عرّف اللغويون القدامى الرّمز تعريفات متقاربة، ويذهب الخليل بن أحمد الفريدي أنّ الرّمز "تصويت خفي باللسان كالهمس أو إيماء وإشارة بالعينين أو الحاجبين أو الشفتين" (2)

(1) محب الدين الحسيني الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، تح: علي شبري، دا والفكر، بيروت، ط 9، 1994، ص

(2). الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب المعنى، مج 3، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 9، ص 941.

يقول ابن عربي:

"ألا إنَّ الرَّموزَ دليلٌ صِدقٌ *** عَلَى المَعْنَى المَغِيبِ فِي الفُؤَادِ

ب - الرَّمز اصطلاحاً:

جاء في كتاب الناقد قدامة بن جعفر (ت 223 هـ) نقد الشعر متحدثاً عن الرمز قائلاً: "وهو أنَّ اللفظ القليل مشتملاً على معانٍ كثيرة بإيماءٍ إليها، أو بلمحة تدل عليها".⁽¹⁾ وهذا ما يؤكدُه الناقد أدونيس عندما اعتبره لغة النص الثانية قائلاً:

"فالرمز قبل كل شيء معنى خفي وإيحاء، إنَّه اللَّغة التي تبدأ حين تنتهي القصيدة، أو هو القصيدة التي تتكون في وعيك بعد قراءة القصيدة، إنَّه البرق الذي يتيح للوعي أن يستشف عالماً لا حدود له، لذلك هو إضاءة للوجود، للقيم، واندفاع نحو الجوهر"⁽²⁾.

فالرمز هنا الكلمة التي لا تستخدم لذاتها في الخطاب الشعري وإنما لقصد الإيماء والإشارة لمعنى آخر أريدت له.

(1) أبو الفرج قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص 914

(2) أدونيس: زمن الشعر، دار العودة، بيروت، لبنان، 1972م، ص 990 .

2- الرّمز في الشّعر الصّوفي:

إنّ الرموز الصوفية ليست تعبيراً صافياً عن مقاصد صاحبها، وإنّما هي تعبير عن معنى يستعصي أبداً عن الحضور، إنّهُ المعنى الذي لا هوية له ، لهذا تعددت واختلّفت باختلاف مدلولاتها، فكل رمز يختلف باختلاف الحال والمقام الذي يعيشه الصوفي.

من أبرز ما يميّز الشّعر عند الصوفية اصطناع أصحابه لأسلوب الرّمز في التعبير عن حقائق التصوف. ويكشف لنا القشيري عن الدّوافع التي أفضت بأولئك الصوفية إلى اصطناع الرمزية في التعبير، فيقول: "اعلم أنّ من المعلوم أنّ كلّ طائفة من العلماء لهم ألفاظ يستعملونها انفراداً بها عمّن سواهم، و تواطؤوا عليها لأغراض لهم فيها من تقريب الفهم على المخاطبين بها، أو تسهيل على أهل تلك الصنعة في الوقوف على معانيهم بإطلاقها، وهذه الطائفة يقصد الصوفية مستعملون ألفاظاً فيما بينهم قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم، والإجماع والسّتر على من باينهم في طريقته، لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب، غير أنّهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها، إذ ليست حقائقهم مجموعة بنوع تكلف، أو مجلوبة بضرب تصرّف، بل هي معان أودعها الله تعالى قلوب قوم، واستخلص لحقائقها أسرار قوم"⁽¹⁾

(1) القشيري أبو القاسم: الرسالة القشيرية، ص 31

فقد تعمّد الصّوفة ابتكار معجم خاص بهم ينهض على الرّمز الصّوفي، ويحمل خبايا اللغة الصّوفية، التي قصد بغموضها أن تبقى مصطلحاته واضحة بين أهل الطائفة لا يلمّها إلا المريد، الذي يتقدّم لعالم هذه اللّغة بقلب راغب، ويمرّ بمرحلة المكابدة التي يسلكها الصوفي في الوصول إلى ربّه، بينما هو في الوقت نفسه يمرّ بما مرّ به الصوفية في تواصلهم مع لغتهم واكتشاف دلالتها، باعتبارها لغة إشارية تخضع لقوانينها الذاتية ولتحولات عالمها الخاص، ولا تتمثّل فيها اللفظة لحدود المعنى الظاهر، باعتبار التّصوف خبرة ذاتية، ممّا جعل منه شيئاً قريباً من الفن، والبحث عن اللّذة الروحيّة التي لا يمكن التعبير عنها بالألفاظ في معانيها العاديّة.

وقد تعددت الرموز في الشّعر الصّوفي، فمنها: الحمرة، و المرأة، و الحروف، و الأعداد....

1- رمز المرأة في الشّعر الصّوفي :

إنّ رمز المرأة في شعر الحبّ الصوفي، يعتبرونه، معراجاً لوصف شوقهم ووجدهم وهيامهم، لأنّ المرأة هذا الكائن الجميل لذاتها، ويستعملونه في تجربتهم الفريدة للوصول إلى محبوبتهم، ممّا يؤكّد أنّهم ينهلون من معين الشعر الغزلي والخمري الذي خلّفه العاشقون العذريون في شعرهم.

وقد تسمت المرأة في أشعارهم بمسميات عديدة، كليلى، سلمى، عتب... وهي أسماء كثيرة، فلم يجدوا أحسن من الغزل العذري مجالا يعبرون عن هيامهم، فالغزل العذري كان ارهاصاً ومدخلاً لرمز المرأة في الشّعر الصّوفي.

نجد أنّ الشاعر الصوفي عمد إلى التعبير عن الحبّ بأساليب الغزل العذري، كي يعبر عن مواجيد العرفانية، إلى حدّ أخرج بعض نصوص الشعر الصوفي عن سياق الحبّ الالهي وأدخله في سياق الحبّ الحسي.

وأشهر مَنْ عُرِفَ من المتصوّفة بتوظيفهم لرمز المرأة الشاعر عمر بن الفارض
(سلطان العاشقين) الذي عُرِفَ بشاعر الحب الإلهي .

يقول ابن الفارض في التائية:

بَفَرَطٍ غرامي ذِكْرَ قيسٍ بوجده*** وبَهْجَتِها لُبْنَى أَمْتُ وَأَمْتُ .

فلم أَرِ مثلي عاشِقاً ذا صباية*** ولا مثلاً معشوقَةً ذاتَ بهجةٍ .

و تحدثت الزّاهدة رابعة العدوية (ت 185 هـ) عن الحبِّ في أبياتها المشهورة حيث
قالت :

أُحِبُّكَ حُبِّينِ حُبِّ الهَوَى *** فأما الذي هو حب الهَوَى

وأما الذي أنتَ أهلٌ له *** وَحُبِّ لَأَنْكَ أَهْلَ لَذَاكَ

فشُغْلِي بِذِكْرِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ *** فَكَشْفُكَ لِي الْحُجْبِ حَتَّى أَرَاكَ

وقد استخدم شعيب أبو مدين التلمساني رمز المرأة في قصائده بكثرة، يقول:

طَالَ اشْتِيَاقِي وَلَا خِلَ يُؤَانِسُنِي *** وَلَا الزَّمَانُ بِمَا نَهَوَى يُؤَافِينِي

هَذَا الْحَبِيبُ الَّذِي فِي الْقَلْبِ مَسْكَنُهُ *** عَلَيْهِ أَنْكَرْنِي مَنْ كَانَ يَعْرِفُنِي

2- رمز الخمرة في الشعر الصوفي

إنَّ الحديثَ عن الخمرة من قبل الشعراء قديم، إذ كان وصف الجاهليين
للخمرة يحمل دلالات مختلفة ، لكن شعر الخمرة في الشعر الصوفي تعتبر معينا
خصبا، ينهل منه الشعراء صورا شعرية مختلفة، يرمزون لها إلى الحب والغرام،
و السعادة والنشوة.

قد نسبت بدايات الرّ مز الخمري في الشّعراصوفي إلى ذي النون المصري الذي
استعمل ألفاظ الكأس والشراب مجازا في هذا المجال وسلك الصّوفيّة بعده
مسلكه⁽¹⁾ .

لقد استقى المتصوفة اصطلاحاتهم وألفاظهم من موضوعات شتى، إذ يعدّ
السكر من أوفرها تواجدا في الشعري الصوفي، وهو في اللغة نقيض للصحو. يقول
عمر بن الفارض:

شَرَبْنَا عَلَى ذِكْرِ الْحَبِيبِ مُدَامَةً *** سَكِرْنَا بِهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخْلَقَ الْكَرْمُ.
يقول أبو مدين شعيب :

قُمْ يَا نَدِيمِي إِلَى الْمَدَامَةِ وَاسْقِنَا *** خَمْرًا تُنِيرُ بِشُرْبِهَا الْأَرْوَاحُ
أَوْ مَا تَرَى السَّاقِيَ الْقَدِيمَ يَدِيرُهَا *** فَكَأَنَّهَا فِي كَأْسِهَا الْمِصْبَاحُ
قال ابن سبعين:

قُلْ لِمَنْ طَافَ بِكَاسَاتِ الْهَوَى *** وَنَأَى بِشُرْبِهَا لِمَا ثَمَلْ

فالخمرة عند الصوفية هي رمز على المحبة، مجردة من حدود الزمان والمكان،
وهي الخمر التي شربتها الأرواح المجردة فانتشت وأخذها السكر. فالخمر موجبة
للسكر، والسكر عند القشيري " هو غيبة بواذر قوى والصحو هو رجوع إلى
الإحساس بعد الغيبة"⁽²⁾

(1) ينظر ، أحمد عبيدلي ، الخطاب الشعري الصوفي المغربي في القرنين السادس و السابع الهجريين - دراسة موضوعاتية فنية
-ماجستير في .الأدب العربي القديم ، ص102.

(2) غالي نعيم، مستويات الرمز الصوفي، ص82 :

قد أخذ على يد الصّوفيّة كما أخذ من قبل شعر الغزل أسلوباً رمزياً حافلاً بالثراء، يلوحون به على طريقتهم إلى مجموعة ثابتة من المعاني الدّوقية وقد أعطى الصّوفيّة هذا المعجم الخمري دلالات جديدة خرجت بالخمير إلى دائرة الرّمز الصّوفيّ، حيث وجد الصّوفيّة في الخمر المجردة، معادلاً موضوعياً للخمير الماديّة. فالرمز مجال تعبير واسع و متعدد، يجد فيه الصّوفي ضالته .

*الدوافع الرئيسة التي ألجأت الصوفيين للرمز:

1- غيرتهم على الأسرار الربانية التي لا يريدون لها أن تشيع في غير أهلها .

يقول ابن عربي:

نبه على السر ولا تفشه*** فالبوح بالسر له عواقب

على الذي يديه فاصبر له*** واكتمه حتى يصل الوقت

2- أن اللغة العادية، قاصرة عن إدراك معانيهم، كما لا يمكنها أن تستوعب تجربتهم، فيلجأ إلى الرمز الذي تعدد دلالاته وإيحاءاته. فطبيعة التجربة الصوفية، هي التي استدعت لغة جديدة.

3- خشية على معانيهم أن تضيع عند غيرهم ممن لا يفهمونها.

4- لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب. قال بعض المتكلمين لأبي العباس بن عطاء: "ما بالكم أيها المتصوفة قد اشتققتهم ألفاظاً أغربتم بها على السامعين، وخرجتم عن اللسان المعتاد، هل هذا إلا طلب للتمويه، أوستر لعوار المذهب، فقال أبو العباس: ما فعلنا ذلك إلا لغيرتنا عليه لعزته علينا كي لا يُشرّ بها غير طائفتنا"⁽¹⁾.

(1) الكلاباذي: التعريف لمذهب أهل التصوف، ص 22.

5- خشية على أنفسهم من أن ينسبوا إلى الكفر، وبخاصة من الفقهاء .

6- لم يجدوا طريقا آخر ممكنا يترجمون به عن رياضتهم الصوفية.

قائمة المصادر والمراجع:

- (1) الكلاباذي: التعريف لمذهب أهل التصوف. دار الكتاب العلمية، بيروت ، 2001، د.ط
- (2) أحمد عبيدلي: الخطاب الشعري الصوفي المغربي في القرنين السادس و السابع الهجريين، دراسة موضوعاتية فنية، ماجستير في الأدب العربي القديم .
- (3) غالي نعيمى: مستويات الرمز الصوفي،
- (4) محمد عبد المنعم خفاجي، الأدب في التراث الصوفي . مكتبة غريب ، القاهرة. دت.
- (5) القشيري أبو القاسم: الرسالة القشيرية، دار الكتاب العلمية ، بيروت ، لبنان ط 1، 1989م.
- (6) أبو الفرج قدامة بن جعفر : نقد الشعر، تحقيق وتعليق : محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان، (د.ت).
- (7) أدونيس : زمن الشعر، دار العودة ، بيروت، لبنان، 1972م،
- (8) محب الدين الحسيني الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس، تح :علي شبري، دا والفكر، بيروت، ط 9، 1994، ص
- (9) الخليل بن أحمد الفراهيدي : كتاب المعنى، مج 3 ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 9 .

